الفصل الثاني

إستراتيجية أنابيب المرجل

ومدارس التفكير الإستراتيجي

كانت دراسة التفكير الإستراتيجي عبر التاريخ يؤخذ بها فيما يتعلق بموضوع البيئة أو الطبيعة من قبل في عدد من المدارس الفكرية، والأكثر شيوعاً في المجالات البحريّة والجويّة والنوويّة، وحرب العصابات والإرهاب.

ففي حين كان أحد تسلسل هذه الاشتراكات يسير في اتجاه إستراتيجية تتطور داخل قدرة الآخر البيئية كما في إستراتيجية "المرجل المؤنبب" من البر والبحر والجو. ولكن، ولأنّ الدول المتقدّمة حالياً ثابتة السلوك تقريباً في الحرب - وبالتالي وضع الإستراتيجيات والتخطيط للعمليات - مع القوات المشتركة، والتي يقصد منها برمّتها بدلاً من ثلاثة كيانات متميّزة البيئية، بيدَ أنّ هذا النهج قد أصبح مصطنعاً. فمختلف الوسائل التي تستخدم فيها الجيوش القوات البحرية والقوات الجوية، وقد تعمل تلك القوى ذات الوسائل على ذلك وتؤدي المتطلبات البيئية لاعتماد تكتيكات مختلفة وأممية لتنمية الثقافات، ولكن في النهاية، فإنّ كل تلك الوسائل يجب أن تطبق من خلال إستراتيجية مشتركة لتحقيق النتائج المرجوة.

بيدَ أنّه ومع ذلك، فإنّ وضع حدود حول موضوع معقد مثل موضوع الإستراتيجية تعتبر طريقة مفيدة لحفظ هذه المواد وإبقائها تحت السيطرة، ومساعدة أيضاً من أجل الوصول إلى حدود مشتركة للتفاهم. وعلاوة على ذلك؛ فالحقيقة تكمن في أنّ القوات الجوية قد بدأت تظهر في أوائل القرن العشرين، في حين أجريت للجيوش والقوات البحرية بصفة عامة عمليات منفصلة؛ وهي عامة ونادراً ما تكون مشتركة في قوائم الحروب، في حين أصبح ظهور الإرهاب بوصفه الأسلوب الكريه المفضل من بين ست مدارس قتالية، وعلى الأقل إنّها وسيلة ما زالت قائمة ويمكن تحديدها بوصفها وسيلة لعمليات منفصلة، وإن كانت محظورة بموجب القانون الدولي.

وبالتالي فإنّ تلك المقاييس لا تعتبر مفيدة وصحيحة تاريخياً لدراسة العناصر الأساسية لمختلف المدارس على حدة، قبل مناقشتها من منظور متكامل يعكس على نحو أفضل الممارسات الإستراتيجية المعاصرة.

الإستراتيجية الأوروبية (القارية):

كانت العمليات الأرضيّة هي الشكل الغالب من أشكال الحرب، في حين كان وضع إستراتيجية للمدرسة الأوروبية يحظى بالاهتمام الرئيسي الذي قد نشأ منذ أن كتب أكبر مؤرخ عسكري "الأثيني ثيوسيدس" كتباً أصلية آخذاً بعين الاعتبار الظروف الرئيسية للصراع، وحرب "البيلوبونيسية"[17] خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وأول تقرير من ناحية الصراع الرهيب بين "أثينا وإسبارطة" في حين بقي العديد من الدروس اليوم كما كان قبل 2500 سنة مضت في الوقت الذي كان فيه الأنصار يخوضون الحروب بالسيوف والرماح بدلاً من النظم الفضائية والإلكترونيات! ولكن ملاحظاته على طبيعة الحرب والأخلاق، وعلى سياسة القوة، لم يتم تجاوزها بينما كان "ثيوسيدس" في المقام الأول يتحدث عن طبيعة الصراعات البشرية، وغيرها وقد وجد كثير من الخبراء الإستراتيجيين الأوروبيين دقة ما قاله وإلى حد كبير حين تطابق مع شكل أعمالهم.

17- بدأت الحرب البيلوبونيسية (431 ق.م. - 403 ق.م.) بسبب التوسعات الاستعمارية والتجارية لأثينا على حساب كورنث حليفة إسبرطة فاندلعت الحرب. أما عن جماعة أثينا فكانت تتكون من: أثينا - يوبويا - الجزر الكيكلادية - المدن الأيونية (وكلها شكلت الاتحاد الديلي)، بالإضافة لأكارنايا وثيساليا. أما حلفاء إسبرطة فكانوا: أغلب البيلوبونيسوس - بويوتيا - مقدونيا - فوكيس. بينما بقيت أمكنة مثل إبيروس وأيتوليا وكريت كذلك أرغوس وأخايا (الوحيدتان في البيلوبونيسوس) على الحياد. وكتب ثوكيديدس أكبر مرجع يُعتمد عليه لهذه الحرب، ولم تكن الحرب الأولى المسماة بالبيلوبونيسية فقد كانت هناك حرب قبلها عام 460 ق.م. وكانت بين أثينا والمدن البيلوبونيسية وانضمت إسبرطة بعد 5 أعوام.

ويمكن هنا ذكر مثال، كالمناورة أو الدخول في موقف، بالإضافة إلى ممارسات أخرى من قبيل إلخداع والتمويه وعنصر المفاجأة، في الوقت المناسب، وهكذا، قد يبدو واضحاً تمام الوضوح جميع ذلك، ولكن ذلك لم يكن دائماً يتعلق بمضمون القضية.

وعلى وجه الخصوص، فقد درست كتبه باستفاضة حول التحديات الفكرية والعملية المركزية وأفضل السبل لتطبيق القوة المتاحة ضد العدو، وأفضل طريقة للاحتكاك مع العدو للحصول على أقصى فائدة ممكنة أو للتقليل من أي عيب متأصل في المعدات، وتحديد واحد من قدرات القوات الخاصة.

إنّ هذا النهج قد يعتبر متخلفاً قياساً مع القول المأثور "المناورة وقوة النيران". ومثل ملاحظات "ثيوسيدس" حول أهميّة المناورة وقوة النيران - أو بالأحرى الأساليب النارية والتلاعب بالقوة - لكنّها تبقى مهامً غير موزعة، ومن الأمور الأساسية لجميع من يسمون مدارس الفكر الإستراتيجي. بل الانتحارية في المواقف للمناورة، وبعد ذلك يتقرر متى يتم تطبيق الوسائل الناريّة. إلا أنّه أصبح القسم الأكبر من وسط جوانب الحل الناري ومعادلة المناورة معروفة جيداً لدرجة الابتذال، ولكن هذا لا يقلّل من استمرار أهميتها أو تحقيق ما دون الحلول العامة.

وفي المقابل؛ لا يبدو من البديهي أنّ هذه الممارسات تحظى دائماً بذات الأهمية في العصر الحديث، كما يتّضح من التجربة الكارثيّة الكبيرة التي حصلت فوق الأراضي الصربية في قوة اللامبالاة حين احتشدت القوات في أرض مفتوحة خلال الحرب بين منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) والرئيس السابق لجمهورية يوغسلافيا في عام 1999 والذي هلك لاحقاً، وكان حلف شمال الأطلسي يعمل حينها على شكل مطاردات.

وبالمثل، فإنّ تطبيق القوة الناريّة تعقب عادة راسخة سابقة بغض النظر عن حجم القوات المشاركة بالأسلحة ولذلك ينبغي أن تتسق الأهداف، فهي عادة ما تفضل أن تكون قادرة على إطلاق النار على طول (مرمى الرمي الانتظامي) وليس عبر خطوط العدو؛ ويجب على معدّلات النار أن تستجيب لمستوى الخطر؛ والقوة النارية التي يمكن أن تُستخدم لتسهيل المناورة، وما إلى ذلك كبعض أفضل المعروفين المطلعين الإستراتيجيين والذين جعلوا سمعتهم أساساً عن طريق الدعوة إلى نماذج محددة من المناورة وقوة النيران.

ولكن هذا قد حدا ببعض المعلقين إلى اعتبار تلك التكتيكات فرديّة وليست

إستراتيجية لمجرد تأكيد لمعاني الكلمات المرتبطة بكلمة "إستراتيجية"، وينبغي ألا يسمح لصرف الانتباه نحو أمور أخرى.

كان الكابتن "باسيل ليدل هارت"[18] مؤلفاً لمجموعة كبيرة من أعمال الحرب، لكنه غالباً ما كان - فوق كل اعتبار - يُعرف بوصفه المنظم للحرب حيث تتكون:

- **أولاً:** الحرب الخاطفة.
- **ثانياً:** المدى غير المباشر.

في ظلّ الظروف الملائمة التي حقّقها "هتلر" مثل فتح المجال لجبهات قتال جديدة، وغزو بولندا، والبلدان المنخفضة وفرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية، والحرب الخاطفة بصفة عامة، فقد كان القتال في الحرب من الناحية العملية لعدة سنوات يبدو لا يقاوم إذا كانت هناك أسئلة بشأن أصول الحرب الخاطفة لا يوجد غير المباشرة بشأن النهج المتبع.

وهنا، فإني لا أدّعي أنّي وضعت هذا المفهوم، لكنه أصبح المفهوم الرائد من خلال الدعوة إلى ما قد يكون له شهرة كتاب بعنوان "الإستراتيجية" ببساطة. النهج غير المباشرة أيضاً، يبدو بسيطاً بعد أن تمّ توجيه إشعار. الفكرة هي إن أمكن، على الدوام لنهج العدو من اتجاه غير متوقع وبطريقة غير متوقعة.

يعتبر الإسكندر الأكبر أول من وضع مفهوم الممارسة العسكرية، وكيفيّة التعامل مع التشكيلات المعادية بشكل زوايا منحرفة، وهكذا، فقد كان ينفذ تلك الخطط باحتراف بالغ، ثم فجأة يتأرجح خط قواته حولها في آخر لحظة، إما

18- باسيل هنري ليدل هارت (1895- 1970م) هو مؤلف وإستراتيجي، إنجليزي. ولد في باريس، وتعلم في كامبردج، واشترك في الحرب العالمية الأولى. ترك الجيش وعمل مراسلاً عسكرياً للديلي تلغراف، والتايمز اللندنية. من أوائل الذين اهتموا بالحرب الميكانيكية، شرح أساليبها التكتيكية المتعلقة بتدريب المشاة، واتبعتها وزارة الحربية البريطانية. ألف عدة كتب نالت شهرة فائقة.

وهو المدى الذي يمكن فيه ظهور ما يدعى بالحرب الخاطفة، ولكن ذلك لا يهم هنا. ما يعنيه الأمر هو الدعوة للتقنيات التي قامت بتنسيق وثيق للقدرات الفردية وقدرات المدرعات والمشاة والطائرات الهجومية وإلى ديناميكية سريعة الحركة والقوة، والحرب الخاطفة المتقدمة وإمكانات جديدة للشكل والمناورة وقوة النيران التي كانت في مجموعها أكبر من مجموع أجزائه.

للالتفاف على المعارضة أو لضرب أضعف نقطة أو كلاهما معاً.

أما في العصر الحديث، فإنّ من أهم الأمثلة غير المباشرة ذلك النهج الذي قدمه قائد القوات الأمريكية الجنرال "دوغلاس ماك آرثر"[19] في بداية الحرب الكورية، مع القوة الرئيسية المدفوعة تقريباً قبالة الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة الكورية عن طريق القوات الشيوعية، ففي الخامس عشر من شهر أيلول / سبتمبر من عام 1950 كانت حملة "ماك آرثر" المغامرة البرمائية تهبط في "إينشون" والتي تبعد حوالي 240 كم إلى الكوريتين الشماليتين "العمق على الساحل الغربي" والالتفاف مع قطع خطوط الإمداد، الأمر الذي أجبر قوات العدو على التراجع حتى شبه الجزيرة الكورية في الوقت الذي كانت متقدمة في الأسفل.

ولذلك، فإنّ دراسة حالة واحدة أخرى من المناورة وقوة النيران تستحق الاهتمام، لأنها تقدم نظرة عامة حول مفهوم الإستراتيجية.

كان القائد - في سياق هذه المناورة - هو مهندس خطة تعبئة في ألمانيا لبدء الحرب العالمية الأولى، الكونت "ألفريد فون شليفن"[20] رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية 1891 حتى 1906، وتوفي "فون شليفن" في عام 1913 ولكن هذه الخطة قد نُفذت مع تعديل بعض بنودها، وقد نُفذت من قِبل خَلَفه الجنرال "فون مولتك"[21] الأصغر.

كانت سياسة "مولتك" تقتضي بإجرّاء هجوم مرافق ضد القوات الفرنسية من خلال بلجيكا وهولندا، والذي ينطوي على خطة تحرّك مئات الآلاف من الرجال والمواد

19- دوغلاس ماك آرثر: جنرال أمريكي، جنرال في الأمم المتحدة ومشير في الجيش الفلبيني. كان قائد جيش الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينيات القرن العشرين ولعب دوراً بارزاً في حرب المحيط الهادي أثناء الحرب العالمية الثانية. ويكيبيديا.

20- ألفريد جراف فون شليفن (Alfred Graf von Schlieffen)، وكثيرًا ما يسمى بالكونت شليفن في الفترة من 28 فبراير 1833 حتى 4 يناير 1913 وهو مشير وخبير إستراتيجي ألماني شغل منصب رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية الإمبراطورية من 1891 حتى 1906. وأطلق اسمه على خطة شليفن في 1905 التي وضعها لهزيمة الإمبراطورية الروسية في الحرب العالمية الأولى والجمهورية الفرنسية الثالثة في الحرب العالمية الثانية.

21- هيلموت فون مولتكه (قائد بروسي26 أكتوبر 1800 - 24 أبريل 1891) تولى رئاسة أركان الجيش البروسي الذي صار الجيش الألماني بعد تأسيس الإمبراطورية الألمانية عام 1871 من 1857 إلى 1888.

إلى الجبهة غرب ألمانيا، وبشكل ملحوظ وخلال فترة قصيرة مع قليل من التنظيم في الجيش حيث تم عقد اجتماع في ألمانيا لمواجهة محتملة أخرى للخصوم، وحيث كان الروس إلى الشرق. كانت خطّة "شليفن" بسيطة وتُعتبر تحفة من حيث الدقة التنظيمية وعلى نطاق واسع باعتبارها ملحوظة بشكل إستراتيجي. ولكن ذلك ربما يعتمد على الاعتراف بأسس مشكوك فيها.

أعطى القيصر "فيلهلم" في الأول من شهر آب / أغسطس من عام 1914 الأوامر بالتعبئة العامة للجيش الألماني، وهو التاريخ الذي أقره على غرار ما حدث قبل إعلان الحرب ضد فرنسا لمدة يومين. قاد الجيش البروسي إلى النصر في معركة كونيغ غراتس König grätz ضد النمساويين في الحرب النمساوية البروسية عام 1866.

- قاد الجيش البروسي إلى النصر في معركة سيدان عام 1870 ضد الفرنسيين في الحرب الفرنسية البروسية.
- أُعطي لقب غراف (كونت) عام 1870، ثم رُقي إلى رتبة الماريشال (المشير) في العام التالي.
- تقاعد من رئاسة الأركان عام 1888.
- هو عم هيلموت فون مولتكه رئيس أركان الجيش الألماني في بداية الحرب العالمية الأولى.

كانت الأمور تحت إمرة "شليفن" ثم "مولتك"، وكانت هيئة الأركان العامة قد أمضت سنوات في التخطيط لهذه اللحظة. كان تنظيمهم مدهشاً. حيث تمّ حشد مليونين من الرجال والعتاد، وشكّلت وحدة وقوة ضخمة نُقلت نحو الحدود الفرنسية البلجيكية على المئات من القطارات وفقاً لجدول زمني للسكك الحديدية بلغ من الدقة والتعقيد حدوداً غير عادية.

ومما يؤسف له أن "فون مولتك" القائد العام، وبعد تعبئة طلب إعلان الحرب، غيّر القيصر موقفه وقرّر أن غزو الجيوش ينبغي أن يكون بمبادرة من الروس إلى الشرق بدلاً من فرنسا إلى الغرب.

كان الجنرال "مولتك" مذعوراً، لا يريد شيئاً من ذلك، فيقول للقيصر: إنّه يجب أن

يتم حشد الزخم الداخلي في خطته، وهذا يعني أنّه بمجرّد أن تدخل حيز التنفيذ، فإنّه لا يمكن عكسها. ولذلك فقد بدأت الحرب العالمية الأولى في فرنسا وليس في روسيا، لأنّ القائد العسكري الألماني لا يمكنه المناورة للسيطرة على قواته.

أثبت الانتشار الأولي للجيش مقاومته الألمانية، ليس فقط على القيصر، بل أيضاً على الجيش الفرنسي. وقد حقق إنجازات تعتبر رائعة، في حين بدأ التخطيط لمرحلة ما قبل خطة "شليفن" حيث انتقل ما يقرب من مليون ونصف المليون من جنود القوات الألمانية إلى الجبهة للقتال ضد بلجيكا وفرنسا، وتمّ ذلك في غضون سبعة عشر يوماً.

في تلك الأثناء، أصبح "مولتك" عاجزاً عن توجيه قواته. وكان من الصعب الاتصال عن بعد مع الجبهة؛ وفي كثير من الأحيان كان "مولتك" يفكّر بقوّاته بشكل جنوني ولكن بعيداً كل البعد عن الخلط، لكنّه لم يتمكن - من أجل تنفيذ كامل الخطة بقصد المناورات - من تحقيق الالتفاف للجيش الفرنسي مما أحدث انفصاماً حاداً بين الوسائل ولذلك، وبعد ستة أسابيع فقط من الحرب أُعفي "مولتك" من مسؤولياته.

وهنا، يحقّ لنا أن نسأل: هل اتبع "مولتك"و "شيفلن" الطريقة الإستراتيجية، والتكتيك، أم كانا يناوران بالجدول الزمني لحركة السكك الحديدية والكتائب؟

الجواب على السؤال الأخير هو على الأقل: نعم.

ولكن مع الاستفادة من وقوعه، فإنّ هناك انفصالاً واضحاً بين فكرة "شيفلن - مولتك" فيما يتعلق بالتفكير بالغايات، وبالسبل والوسائل التي يمكن أن توحي على أنّها في أفضل الأحوال التكتيكية وبحيث يبدو المخططون لها كمنفّذين بدلاً من مفكرين، وبحيث يتم فهم ما كانت ترنو إليه تلك الغايات بغضّ النظر عمّا إذا كانت بعض الحسابات التي تمّت على عجل تعتبر حافزاً ذا أهمية في انعقاد مثل هذه اللحظات الحاسمة واستجابةً للكمين من قبل مجموعة صغيرة من رجال حرب العصابات، أو أنّها تُعد خطة ضخمة، إلا إذا كانت إستراتيجية التعامل في فكرتهم

عن كيفية تحقيق نصر يُرضي منطق الغايات وسبل العلاقة بين الوسائل.
كان "فون مولتك" البائس ذا الخبرة الناجمة في جزء منها على الأقل بالانشغال في عملية (كيف نفعل الأشياء) على حساب تشكل (ماذا نفعل بالأشياء) وهذا ما يعيد إلى الأذهان إسهام أوروبا الإستراتيجي الآخر الملاحظ، في القرن التاسع عشر.
وفي المقابل، كان تفكير السويسري "أنطوان هنري" يتأثر بشدة في أول تجربة مباشرة لحروب "نابليون بونابرت"، بل ويعرض الصيغة الرقمية في شهر أيلول، ومن المفيد إن لم يكن بالضرورة تطبيق ذلك على نطاق عالمي وعلى الأخص تلك الملاحظات، فطبيعة القوى العاملة الكثيفة لحملات نابليون حيث لاحظ من خلال المفهوم العام لتلك الأوضاع، أنّه كان على يقين جعله يؤكد تأكيداً هاماً على حشد أعداد أكبر، مع الأخذ بالاعتبار وضع خطة الهجوم، والمتمثلة في الهجوم على نقاط ضعف العدو، وتحقيق الهدف الأسمى وهو النصر من خلال معركة حاسمة على عكس العديد من المعارك الثانوية التي خاضها، كما كان يعلّق أهمية كبيرة على التنظيم والخدمات اللوجستية؛ وعلى ما وصفه "خطوط العمليات"، وكان يعتقد بأن الجيش الذي كان على خط العمليات الداخلية - وهو الموقف الذي يفصل بين قوات العدو حيث تتمتع تلك العمليات بميزة كبيرة وقوية للغاية - وأعرب عن اقتناعه بأنه كان قد تحرك لتأكيد حرمة مبادئ الحرب المُستمدة من هذا المفهوم.
ومن خلال هذا الانشغال في الشكل وليس الغرض فقد كان أغلب الظن أنه بالتوازي مع "مولتك" فإن الأمر يصبح واضحاً في الإصرار القاطع لمبادئ التنظيم العسكري، بل وبقيت تلك المبادئ في مأمن من أكثر التطورات التكنولوجية الهائلة، وهو السبب الرئيسي الذي كانت لديه صلة ذات طابع إستراتيجي، لكنه استمر في الانخفاض مع مرور الوقت.

الإستراتيجية البحرية:

إنّ كل ما تم نشره سابقاً حول السلطة البحرية، وعلى الأخص ما يتعلق "بألفريد

ثاير ماهان"[22] الأمريكي والبريطاني السير "جوليان كوربيت"[23] ظلّ يمارس تأثيراً قوياً على التفكير الإستراتيجي في الوقت الذي كانت فيه أفكار "ماهان" قد عقدت العزم على التنفيذ قبل مطلع القرن العشرين، وبل وفي وقت مبكر جداً عن "كوربيت" وتكاد تصل تلك الفترة إلى عقود من الزمن.

كانت الكتابة آنذاك في ذروة التنافس بين الإمبراطورية وبين الإمبراطوريات الأخرى بما في ذلك المتطلبات البيئية للثروة المتأتية من الاستغلال الاستعماري، وكذلك الاستخدام الفردي كبريطانيا يعتبر بمثابة الدليل الرئيسي، مع أنّ بعض ما قاله "ماهان" كان ذا مصداقية في القول من أنّ القوة البحرية تمتلك مفتاح الهيمنة الدولية، وبالتالي؛ فإنها تستحوذ على مفاتيح الرخاء الاقتصادي، وهذا ما سيؤدي بدوره إلى تطوير المفاهيم الأخرى التي لا تقل أهمية مثل ضرورة الحفاظ على السيطرة على البحار، وأن تكون متناسبة مع الواقع وتستمد صيرورتها من قوة التركيز والانتصار في معركة حاسمة واحدة بحيث يمكن أن تعتبر الإمدادات معقولة، بل وبمثابة الحجة المركزية اللازمة لتحقيق الهدف كان موقف الدفاع السلطة البحرية في ذلك الوقت، لازال صحيحاً حيث تعتبر التجارة البحرية اليوم هي المساهم الرئيسي لمعظم الاقتصاديات المتقدمة.

ولكن الإفراط في تبني المفهوم الإستراتيجي كانت له عواقب مختلفة حيث توجد ثمّة صلة حتمية بين القوة البحرية والقوة الوطنية التي لم تصمد بزوال الاستعمار العلني، في حين أن مسيرة التكنولوجيا مثل السرعات العالية، والاتصالات الدولية والتحويلات المالية، والنقل الجوي، والزيادة الجديدة في الاقتصاد، والذي نقل على الفور السلع مثل الملكية الفكرية، وتولي إدارة الدور، والعولمة المتزايدة للاقتصاد في المعنى الذي هو نتيجة طبيعية لأفول الإمبريالية.

وباختصار، فعلى الرغم من استمرار أهمية الحرب الاقتصادية، فإنّ الأسعار بصفة

22- ألفريد ثاير ماهان كان ضابط عَلَم في البحرية الأمريكية وجيو إستراتيجي، وكان أيضًا مؤرخًا، وقد أُطلق عليه لقب "الإستراتيجي الأمريكي الأكثر أهمية في القرن التاسع عشر الميلادي.

23- جوليان كوربيت: باحث إستراتيجي وصاحب نظريات في الصراعات والحروب .

عامة أصبحت تمتلك مفهوماً إستراتيجياً، في الوقت الذي كان "ماهان" يتعرض للأفكار الضيقة المفرطة.

لكن "كوربيت" كان أكثر قدرة على الانسجام مع الفكر من سلفه فيما يتعلق بالسياسة والصراع، حيث عرض من بين أمور أخرى ذات قيمة أعلى من حيث التقدير المتبادل بين بيئة الفرد وأشكال القوة العسكرية، على الرغم من عدم الاكتراث بالقوة الجوية، وعلى الرغم من الأدلة الدامغة لما حدث للعالم في الحرب العالمية الأولى، فإنّ ذلك سيمثل فشلاً ذريعاً. بالإضافة إلى إظهار ما هو مبتكر نسبياً حول فهم ظهور العمليات المشتركة بشكل مثمر، وعلى الأقل بين القوات البرية والبحرية.

كان "كوربيت" في تلك المرحلة قد قدّم عدداً من الأفكار والتصورات حول بعض أكثر التطبيقات تجرداً وكان في مقدمتها التأكيد على تفوق "الأسطول البحري" وهو مفهوم صالح، ولكن مع تجنب اتخاذ إجرّاءات حاسمة من أجل خدمة واحدة فقط من قبل الأسطول. فقد كان يقابل ذلك ثمّة اقتراحات سبر غريبة للوهلة الأولى، ولكن الفكرة كانت في واقع الأمر دقيقة، وخاصة بالنسبة لأسطول البحرية الذي يبدو بشكل أقرب بالنسبة إلى العدو. وذلك بدلاً من فكرة المخاطرة على جميع المقررات، وتلك الفكرة هي التي كان يفضلها "ماهان"، لكن "كوربيت" رأى بأن الحفاظ على سلامة الأسطول هي الأولوية، ولربما يخلق نوعاً من عدم اليقين حول موقع القوة والدقة، كما يمكن أن يخلق ذلك قائداً كلاسيكياً إثر الردع الإستراتيجي، وزيادة في هذا المقام، درجة من المرونة في مناورة غائبة إلى حد كبير نسبياً من الجيوش التي تسير بخطى بطيئة.

نظرية القوة الجوية:

تُعتبر نظرية "القوة الجوية" واحدة من بين المدارس التقليدية الإستراتيجية من حيث الفكر والعقيدة بما يتعلق بقدرات القوة الجوية منذ البداية، وكان الهدف هو ما تفعله من خلال سرعة الإنجاز التي تخدم الإستراتيجية. ومثال ذلك: قائد الجيش الإيطالي المحنّك "جوليو دوهيت".

كانت القوة الجوية هي القوة الأقوى، إلى درجة أنّ العديد من المتعصبين لها اعتبروها قوة أكثر من إستراتيجية، لكنها تحكم من دون صلاحية. لكنه ومع ذلك، فإن كان صحيحاً ما كان "دوهيت" يقتنع به بأنّ القوة الجوية هي أسرع وأنجح وسيلة للكسب والفوز، فقد خلقت تلك القناعة تأثيراً إستراتيجياً في بداية القتال. وكان الطريق لتحقيق هذا الهدف هو من خلال خروج المغلوب بضربة قاصمة ضد العدو الحقيقي لمركز الثقل، والتي تعرف بأنها النخبة الحاكمة، بما في ذلك السكان، والأجهزة الحكومية.

وهذه الوسيلة والطريقة سوف يتم العمل على تحقيقها، وكانت القوة الجوية، التي يمكنها من خلالها تجاوز كل ما هو موجود ظاهرياً لكن ذلك لم يكن مهماً بشكل إستراتيجي بالنسبة للعدو والجيوش والقوات البحرية في طريقها إلى أعداء الوطن لتنفيذ ضربات مذهلة شديدة الانفجار، مدجّجة بالمواد الحارقة والغاز. وفي النهاية فإنّ الغاية تبرّر الوسيلة، والانتصار سيكون سريعاً وكاملاً، وبالتالي يتمّ تجنّب الجمود المروع كما حدث في الخنادق التي شهدت الحرب العالمية الأولى.

يُعتبر "دوهيت" ذا فضل فيما يتعلق بنطاق رؤيته حول القوى الجوية، ولكن يقع عليه بعض اللّوم لإيمانه الأعمى تقريباً فيما يتعلق بالتكنولوجيا من جهة، وجهله من ناحية أخرى. واللافت أنّ الشخص كان خرّيج العلوم والهندسة، ولكن مع استخدام "دوهيت" التكنولوجيا باعتبارها أساس نظرياته، فقد كانت تلك مناسبة مواتية له وسطحية، ولكنه لم يفعل ذلك.

وعلى سبيل المثال، تأكيداته من أنّ الطائرات القاذفة من شأنها دائماً بلوغ أهدافها، وأنّها بعد ذلك تقوم بإلقاء أسلحتها بدقة مثالية، ونادراً ما يمكن أن تكون أكثر في غير هدفها، وقد تمّ الكشف عن ذلك خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. ومن ناحية ثانية؛ فإنّه لم يكن هناك اهتمام أكثر لكامل نطاق التدمير الذي تحدثه القوى الجوية بما في ذلك ما يترتب من الآثار النفسية للقصف الجوي، مع افتراض العواقب الوخيمة.

كانت نظريته حول القوى الجويّة ذات عنصر حتمي في طابع تفكيره، ولكن ذلك

كان يتعارض مع طبيعة الحرب، التي يجب أن تستجيب دائماً لمسيرة العلم ولكن في نهاية المطاف.

في أعقاب الهجمات النووية على هيروشيما وناغازاكي في شهر آب / أغسطس 1945 والتي أنهت الحرب على طول الجبهات في المحيط الهادئ، فإنّ العديد من السياسيّين والمحلّلين يعتقدون بأنّ ما يُسمى بالطبيعة الخاصة للأمن الوطني قد تغيّرت بشكل تام ودائم، وأنّ تلك القنابل الذريّة المدمّرة قد كسرت ما يدعى "استمرارية الفنون العسكرية" وإنّ أي إستراتيجية أخرى لا تساوي قيمة حبر الورق المكتوبة عليه.

لكن الأحداث فيما بعد قد بينت أنّ هذا الأمر لم يكن كذلك، وعلى الأخص خلال العقود التي تلت ذلك في التفكير في الكثير من الأسس الإستراتيجية، وعلى نحو ما نوقش في هذا الكتاب، وقد ظلّ ثابتاً بدرجة كبيرة. في الوقت نفسه، أنّ مفهوم "القنبلة" قد توسّع بشكل كبير وإلى مجموعة جديدة من المفاهيم، وذلك لما لتلك "القنبلة" من قدرة على التدمير لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية.

النظرية النووية:

وفقاً "لبرنارد برودي" الذي يُعتبر واحداً من الإستراتيجيين البارزين فإنّ ما قامت به الولايات المتحدة باستخدامها للأسلحة الذرية ضد اليابان، قد برّر ما كان "دوهيت" قد دعا إليه بما أسماه خروج المغلوب بضربة من الجو. ولكن تفسير خروج المغلوب بالضربة المتوخّاة قد أحدث صدمة هائلة لحجم الموت والدمار الناجم عن تلك الأسلحة التي أُسقطت على هيروشيما وناغازاكي، وقد أدى ذلك فيما بعد إلى تطور الإستراتيجية النووية الذي اتُّبع في وضع "القنبلة" حيث ثبت أنّ الأمر أكثر تعقيداً بكثير مما كان قد أشار إليه استنتاج "برودي" المبكّر، وخاصّة عندما كان الاتحاد السوفيتي قد تفوّق في تجربة ذرية ناجحة له للأسلحة النووية في عام 1949، وأصبحت العمليّة منذ ذلك التاريخ عملية تفاعلية بين الولايات المتحدة والسوفييت. بيدَ أنّ المشكلة كانت تكمن في محاولة لتناسب مستوى الأسبقيّة بالشكل الذي لا يمكن تصوّره، وذلك من خلال محاولات تحويلها من قوة مدمّرة إلى بناء

إستراتيجية رشيدة.

تُعتبر الإستراتيجية الانتقامية واسعة النطاق واحدة من الإستراتيجيات ذات الطابع النووي بحيث يمكن تنفيذها في أقرب وقت ممكن، ولكن لما لديها من المرونة الواضحة والضمنيّة الرهيبة لإنهاء الدولة، ولكن لأسباب إستراتيجية بحيث لا يزعجها البقاء في طور الاسترخاء إذا لم تصل التطورات إلى حدّ استخدامها كوسيلة ردع قاضية.

وهكذا، فإنّ الجهود التي تبذلها الولايات المتحدة والأكاديميّين لوضع سياسات أقلّ تطرّفاً قد أدى إلى تعزيز هذه الأفكار الرادعة، وكذلك إلى الاستجابة المرنة، واتباع إجرّاءات التصعيد التدريجي في الصراعات المختلفة، وهذه الأخيرة هي التي تُعرف أيضاً باسم الذرائعية أو المخاطر الإستراتيجية. لكن الفكرة المفصلية هنا تكمن في أنّ القوّة النوويّة ستُطبّق بعد التصريح عن نيّة تنفيذها، على عكس الطريقة غير المقيدة.

ولكن إذا كان الانتقام غير مجدٍ بشكل واسع النطاق، وفي حال خرجت من طور الردع، والاستجابة المرنة، وكان التصعيد التدريجي فكرياً فإنّه في حالة كهذه ستصبح في وضع لا يمكن فيه الدفاع عنها.

ولذلك، فإنّ كل المفاهيم الثلاثة ضمناً تكمن في القدرة على إدارة استخدام الأسلحة النووية، حتى أصبح السؤال المحوري: هل يمكن التحكم في الحرب النووية؟

وقد جاءت الإجابة على لسان الكثير من المعلّقين: لا.

وهنا، فإنّ ما يتمّ تردّده على أنّ القادة سوف يردون على الهجوم النووي في قياس ثابت وبعناية إنّما يبقى مجرّد وسيلة لا يمكن تحمّل عواقبها أو حتى التكهّن بنتائجها وذلك من حيث قوة تدمير الأسلحة المواجهة الممكنة للإبادة، في الوقت الذي سيجد هؤلاء القادة صعوبة كبيرة في مقاومة الإغراء الخاص بها للتقليل من الخسائر، وذلك عن طريق السياق بقصد المباغتة في الحصول على المركز الأول من خلال ضربة واسعة النطاق تقضي على العدو وتشلّ حركته مباشرة.

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الاتحاد السوفيتي على ما يبدو كان قليل الاهتمام بما يخص تلك المفاهيم الأكثر تطوراً ولكن مع عمق مشبوه، وبالتالي، فإنّ العصبية في القيادة السوفيتية طوال فترة الحرب الباردة قد تحولت إلى مفهوم واحد، واسع النطاق، حيث كانوا يفضّلون أن يكون استخدام الهجوم النووي كضربة وقائية.

تُبين الإستراتيجية النووية الأكثر مصداقية أن الردع المتبادل، هو مفهوم قد أصبح يُعرف في النهاية بشكل مختصر، بأنّه سيُؤدي إلى التدمير المتبادل المؤكد، وسيُدخل العالم في السريالية النووية الإستراتيجية التي تمثل في الواقع نوعاً من المنطق المختلف على أن يتم تقريره من قبل وزارة الدفاع ضد التهديد النووي، ولكنه سيكون في موقع العاجز، وهذا فقط يحدث كنوع من الردع، بل ويمكن أن يكون بمثابة الردع المضاد.

بيدَ أنّ هناك قضية عادلة يمكن أن تكوّن مصداقية المفهوم فكرياً، وذلك لأنها ترتكز على خمسين عاماً من الإستراتيجية ذات الجمود النسبي الذي كان قائماً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، على الرغم من القوتين العظميين - وبانتظام - كان لديهما حيّزٌ من المواجهة العسكرية التقليدية وغير المباشرة عبر مختلف العملاء، وكانت تلك المواجهات تعتبر ملازمة لأي نجاح في تطبيق الردع المفترض.

يفترض أنّ كلاً من هذين الخصمين الكبيرين يمتلكان ترسانات جبارة من الأسلحة الفتاكة - وينطبق هذا الافتراض مع أكبر قوة نووية إلى نماذج من الأسلحة التقليدية - ومن الجدير بالذكر أنّه حتى الآن يبدو أنّ العمل يدور فيها بكثير من التأنّي، في حين أنّه في نزاعات الدول القائمة على الأطراف لم تشارك أصلاً الولايات المتحدة في مواجهة الاتحاد السوفيتي، كباكستان في مواجهة الهند. شأنها شأن غيرها من الإستراتيجيات المعروضة عليها، حيث يمكن أن تصبح زائدة في الحال لدى الدول أو المنظمات حيث من غير المنطقي حصولها على أسلحة نووية، لأنّها بالتأكيد سوف تسعى لاستخدامها.

تجدر الإشارة قبل المناقشة النهائية لمدرستين من الفكر الإستراتيجي، كحرب العصابات والإرهاب إلى بعض المصطلحات التي انبثقت عن الإستراتيجية النووية،

وذلك لتوضيح استخدام لغة السياسة وتحديداً، فإنّ العبارات الملطّفة كعبارة "القوة النووية المضادة" لوصف الهجمات ضد المنشآت والتشكيلات العسكرية، ومستوى المكافحة المضادة وشن الهجمات على المدن وعلى المدنيين، بل ومثيرة للقلق من جانب المعايير التي يتسم بها في بعض الأحيان البعد الفكري للحرب.

في حين يمكن أن تقدم الملاحظة نفسها فيما يتعلق باستخدام "الحرمان" من شنّ هجمات على القوات العسكرية، و"العقاب" من شنّ الهجمات على المدن، لتدمير قيادة العدو.

يمكن لهذه العبارات التلطيفيّة أن تكون جزءاً من لغة إستراتيجية غنية، ولكن يجب أن يفهم الإستراتيجيون بالضبط ما يقولون عندما توضع مثل هذه الشروط لمثل هذه الوحشية، وإن كان يفترض وضع ما يلزم من إجراءات.

حرب العصابات:

كانت حرب العصابات، أو حروب الأحزاب أو العمليات الفدائية غير النظامية تعتبر بمثابة الوسيلة المفضلة لحرب الضعيف ضد القوي على مدى آلاف السنين. فقد أثبتت الممارسة التي تعتمد على الأفكار الصينية لعبقري فنون القتال الصيني "صن تزو" نجاعتها في قضّ مضاجع العدو وإرباكه، والتي كانت تشدّد على الخداع والمفاجأة، وعلى تكتيكات قصيرة وحادة للهجمات على نقاط ضعف العدو، ومن ثم يليه الانسحاب السريع.

يعتبر ما ألفه وخطط له "صن تزو" من أهم وسائل حرب العصابات، والدعاة للثورة في القرن العشرين، وقد لخص القائد الثوري الصيني المشهور "ماو تسي تونغ" تجربة اختبار هذه الطريقة:

حين يكون العدو موغلاً في التقدم، فإنّنا نتراجع؛ ولكن حالما يصل العدو إلى مخيّماته ويهجع، فإنّنا نضايقه حينذاك بهجماتنا المباغتة؛ وعلى الأخص في الأوقات الذي تكون فيها قوات العدو في طور الراحة أو معتكفة عن القتال والمواجهة، وفي الحقيقة، فإنّ تلك هي فرصتنا الذهبية في القيام بهجوم الصدمة ومن ثم نتابع.

لقد ساهمت المساحات الشاسعة للصين والأقاليم الواسعة في نجاح تكتيك حرب

العصابات الكلاسيكية للقائد "ماو" الذي أحسن استغلال تلك الحقول الشاسعة للصين من أجل خلق الوقت والمكان المناسبين للقيام بالهجوم مع اعتقاد العدو الدائم بأنه يُعد العدة لحملة مستمرة، وبذلك كانوا ينجحون في خطط هجومهم في كل مرّة ويغنمون العتاد العسكري المختلف للأعداء في حين كانت كفّة النصر تميل عموماً لصالح الثوّار المتمرّدين.

لقد ترجم "ماو" النظرية من مجرّد أفكار إلى واقع وذلك خلال الحرب الأهلية في الصين بين كل من الشيوعيين و"شيانغ كاي شيك القوميين" والذي قاد الشيوعيين خلال عام 1920 إلى تحقيق النصر النهائي على البر الرئيسي في عام 1949.

كانت سمات حملات "ماو" ذات الطابع العسكري الهجومي ذات خصائص مميزة بحيث يمكن القيام بنسخها وتطبيقها، وهذا ما حصل في وقت لاحق حيث قام "ماو" برفقة قادة الثوار الآخرين بنسخ الثورة لتشمل عدة أقاليم. وهكذا؛ كان الاحتفال على ثلاث مراحل متميزة:

1- فوز الاشتراكيات من الريف (الدفاع الإستراتيجي).
2- عزل المدن (المأزق الإستراتيجي).
3- وأخيراً، إحكام القبضة على المدن (الإستراتيجية الهجومية).

و في عملية الانتقال من خلال هذه المراحل الثورية الثلاث، فقد أفلح الجيش تدريجياً في التحول من وسائل حرب العصابات والحرب التقليدية، مع تغيير كبير على هيكلية القوات المتحاربة، وقيامها بنقلة نوعية في تركيبتها إلى قوات صغيرة، ووحدات متحركة ومرنة بدأت تحلّ تدريجياً محل الأساليب التقليدية للقوة في الهياكل التي حشدت تشكيلات المشاة تدعمها المدرعات والمدفعية، وربما القوة الجوية، والثالثة للمرحلة حاسمة.

وهكذا، فعلى النحو التكتيكي الذي كان "ماو" قد مارسه في حرب العصابات - على الأصح "حرب الشعب" - فإنّ التمييز الناشئ عن الظروف ما قبل تلك المرحلة في الصين إنّما يعود إلى النصف الأول من القرن العشرين حيث يمكن للقوة المسلحة أن تستخدم تكتيكات حرب العصابات، وهذه الأساليب يمكن أن تكون مجرد

جزء من حملة أوسع لتحقيق أهدافها من أجل القضاء على النخبة الحاكمة مع الحفاظ على نفس الشكل من أشكال الحكم وذلك من خلال الاشتراكيات، وحرب الشعب بحيث يسعى لتحقيق التغيير الثوري للدولة في المجالات السياسية والإيديولوجية والاقتصادية، ولعلّه من باب المفارقات هنا أنّ حرب الاستقلال الأمريكية التي دارت رحاها منذ عام 1775 حتى عام 1783 في أمريكا حين نجح المستوطنون في ثورة العشرين ضد الحكم البريطاني الأخير يناسب من حيث الوصف ما حدث في الصين، فقد كانت حرب الشعب مناسبة تماماً لهذه الفترة من تاريخ الصين الذي كان يعمل، ويعتبر النموذج الوحيد في متوالية النجاحات الثورية البارزة هي الانتصارات التي حققتها الثورة الفيتنامية ضد الفرنسيين بين عامي 1946 و1954 ثم مع الولايات المتحدة وحلفائها في الفترة الواقعة من عام 1962 إلى عام 1975.

من الملاحظ أنّه في الإستراتيجية، يمكن أن يكون لتحديد المكان والزمان أهمية استثنائية، ذلك لأنّ السياق التنظيمي يعتبر بمثابة كل شيء تقريباً، وهذه الإستراتيجية ليست استثناء على النطاق الضيق على بقية الثورات ذات النهج الثوري، كما فعل "فيدل كاسترو" و"تشي غيفارا" في ثورتهما النضالية في كوبا في الفترة الواقعة بين عامي 1956 إلى 1959 حيث أن ثورتهما على سبيل المثال، قد أخفقت إخفاقاً شنيعاً في "بوليفيا" بعد ثماني سنوات فقط، الأمر الذي أدى إلى إنهاء رومانسية الثورة بإعدام "تشي غيفارا" في ظروف بائسة من قبل السلطات المحلية.

وهكذا، وللأسباب نفسها، تتطابق خصائص الثورات عموماً حيث يمكن تحديد إطار موحد لدراسة حالة محددة. مما لا شكّ فيه أن إطالة أمد الثورة الصينية، والجوانب النفسية الإيجابية النموذجية "لماو تسي تونغ" قد كانت تُعتبر أيضاً عاملاً حاسماً في ثورات كوبا وفيتنام، كما أنّها لا تزال واضحة المعالم في الحروب الحديثة، وليس أقلها في إطار ما يسمى الإستراتيجيات غير المتماثلة التي يستخدمها الفلسطينيون ضد الإسرائيليين في الأراضي المحتلة، وعلى الصعيد العالمي من جانب العديد من الحركات الإسلامية الجهادية.

الإرهاب:

يعتمد الإرهاب منهجيّة توليد الخوف كوسيلة من وسائل الإكراه. ويمكن استخدامه بشكل مقصود لتحقيق هدف محدد، مثل الحصول على معلومات، أو مجموعات معينة، أو معاقبة أفراد، أو لزرع مستوى عام للرعب وبالتالي، لحمل من لا رغبة له في التعاون على التعاون.

ويمكننا في هذا السياق تعريف الإرهاب بحيث يشمل كل من يشترك وينتهك بقانون النزاعات المسلحة، وينتهك القانون المدني. ومن يرتبط في كثير من الأحيان بوسائل حرب العصابات، والتي غالباً ما تستخدمها القوات غير النظامية باعتبارها السبيل الرئيسي لتأكيد السيطرة، وعلى سبيل المثال، فقد كانت المنهجية الخاصة المتّبعة في اغتيال قادة المجتمعات المحلية الذين لا يدعمون قضية معينة أمراً شائعاً منذ عدّة قرون.

ولكن ينبغي أن نلاحظ هنا أن الإرهاب كان عنصراً محورياً في جميع أنواع الإستراتيجيات، بما في ذلك الإرهاب البحري والجوي. وقد حاول بعض المعلقين تصنيف فئات إرهاب الأعمال العسكرية من الحرب العالمية الثانية، حيث قاموا بتعريف الإرهاب في بعض حالاته فقط كالمعاملة الوحشية التي كان يطبقها الجيش الياباني على المدنيين، والحلفاء وتفجير الألمان للمدن، وإغراق السفن المدنية الألمانية واليابانية من قبل أطقم الغواصات. ولكن على الأقل، لا يبدو أنّ ذلك هو الإجابة الوافية على القضية.

ومع ذلك، ففي ظلّ السنوات الأخيرة حيث أحرزت الممارسة والخبرات خطوات مميزة وذلك من خلال الاستخدام المتزايد من الفئات المهشمة كوسيلة اتباع إستراتيجية وبيسر وسهولة، وسرعة السفر والاتصالات العالمية، وسهولة الحصول على المستلزمات - على نحو متزايد - في المجتمعات المفتوحة، وكذلك الأثر النفسي لوسائل الإعلام، والإرهاب، على نحو يتيح للضعفاء ضرب قلب أقوى الخصوم.

تُعتبر مدرسة الإرهاب فريدة من نوعها بين مدارس الفكر الإستراتيجي ذلك لأنّه موجّه مباشرة ضدّ المدنيين، وغير المقاتلين، حيث تتجه نوايا الإرهابيين إلى خلق حالة

من الخوف وعدم اليقين (تعتبر النتائج الطبيعية لهذا التعريف هو أنّ أيّ إجرّاء لعضو من قوات الدفاع يقوم بتنفيذ واجبه من الناحية التقنية لا يمكن أن تصنف تلك الحالة على أنها إرهاب).

من الواضح أنّ هناك تناقضاً واضحاً بين الأمن والإرهاب، وهذا يعني أنّ هناك خلطاً في مفهوم تعريف منظومات الإرهاب، وهنا يجب الحرص التام لدى القيام بتعريف الإرهاب، وعلى سبيل المثال، الانغماس في معاني الكلمات عندما يوصف التعذيب المنهجي، والتشويه، أو سوء معاملة الجنود الأسرى وجرائم الحرب، أوليس يعتبر ذلك إرهاباً؟

أو إذا استعملنا عكس هذه الحالة، وهو قصف المدن بعمليات جوية نظامية جوية على اعتبارها عملية مشروعة، أليست تعتبر جريمة وتحمل في طياتها روح الإرهاب؟.

من هذا المنطلق، فإنّ الإرهابي من ناحية معاكسة قد يعكس صورة أخرى وهي صورة الرجل المناضل في سبيل الحرية!! وعلى الرغم من أنّه قد لا يعرف أكثر من ذرة من الحقيقة.

وهذا ينطبق على عدد غير قليل من الفائزين بالانتخابات للحكم حيث اعتمدوا على تبعيتهم للمنظمات التي أيّدتهم وساندتهم علناً أو سراً من خلال تطبيقها للإرهاب كوسيلة لإسقاط النظام، وأبرز مثال على ذلك ما حدث في أول حكومة إسرائيلية في عام 1948 وفي المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا في عام 1994، وفي حركة حماس في فلسطين في عام 2006، والتي بثت معنويات إضافية بوجه القضية الفلسطينية، ذلك لأنه ومن خلال حقيقة ما حدث في العقود الأخيرة، والعمليات العسكرية التي تقوم بها الحكومات المنتخبة من إسرائيل والولايات المتحدة والتي أدّت إلى قتل الآلاف من المدنيين، وربما أكثر من المجموع الكلي لجميع الهجمات الإرهابيّة التي وقعت في مختلف أرجاء العالم كما في أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر عام 2001، وفي جزيرة "بالي" في أندونيسيا عام 2002، وهجوم "مدريد" عام 2004، ولندن وعمان عام 2005، وتلك التي يقوم بها عشرات من خلال الهجمات الانتحارية الفردية، وبصورة رئيسية ضد الأهداف الغربية.

من المهم أن نقّدر وجود مثل هذه المناطق الرمادية فكرياً، وإلى أن ندرك أنّ التعريف الدقيق للإرهاب لا ينطبق إلا عندما يكون المدنيون هدفاً.

إنّ طائرة مخطوفة، ومدفع رشاش يستخدم في الهجوم على مراكز التسوق والمراكز الإعلامية، وتفجيرات سيارات ملغومة وما شابه ذلك، جميعها تساهم في توليد دعاية واسعة النطاق وخطيرة في بعض الأحيان، وقد تتسبب في أضرار اقتصادية واجتماعية جسيمة، كما أنّها تعتبر رخيصة النفقات نسبياً.

لكن ما قام به تنظيم القاعدة في الهجوم الإرهابي على مركز التجارة العالمي في نيويورك في 11 أيلول 2001 قد أعاد كتابة كتاب الإستراتيجية.

وهناك أيضاً حالات من إرهاب المؤسسات أو إرهاب الدولة، وكذلك حالات النخبة الحاكمة التي تزرع الخوف بانتظام كوسيلة للسيطرة على من يحكمون، حتى أنّها تكون شديدة في بعض الأحيان، وعلى سبيل المثال، كان القمع المتعمد إحدى الوسائل التي طبقها "جوزيف ستالين" في الاتحاد السوفيتي في أواخر عام 1930 حيث كانت تلك الفترة تعرف في التاريخ السوفيتي العظيم بفترة "الإرهاب".!

كما يمكن للدول أن تختار سلوك الإرهاب الدولي بإيواء مرتكبيه مباشرة، أو عن طريق توفير الأموال والتدريب والأسلحة.

الإستراتيجية العبقرية:

"صن تزو - كلاوزفيتز - ومكيافيللي"

إنّ معظم الخبراء الإستراتيجيين الذين تم تحديدهم من حيث البيئة التي عايشوها لاسيما في المدارس الفكرية التي تكشف عن قدر من ضيق الأفق، فإنّ تفكير هؤلاء يميل إلى أن يكون مفهوماً تماماً ويقع في حدود العصر والخبرة. لكن هذا النقد لا يمكن أن ينطبق على حال دولتين تحويان أعظم علماء الإستراتيجية القارية، كالفيلسوف "صن تزو" و "كارل فون كلاوزفيتز" وخلافاً لمعظم الكتّاب الآخرين حول إستراتيجية "تزو" فقد حلّل "كلاوس وينز" التحدي المتمثل في كيفية الانتصار حيث تحتفظ به العامة ذات الصلة إلى حد كبير ذلك لأن التركيز كان على طبيعة الحرب - على الإرادة البشرية والإستراتيجية - وليس على الآلات والأساليب.

كان "لتزو" موقف واضح منذ البداية حول العنوان الدائم لكلاسيكيات فن الحرب، بينما كانت إحدى السمات الرئيسية "لفيتز" بالتساوي بشكل بارع التأليف، وفي الحرب، كان تعليقه على القائد العظيم، وعلى إستراتيجياته بأنّه كان أحد "عباقرة الحرب".

عاش "صن تزو" في الصين كما يمكن القول بأنه ممارساً لفنون القتال وكذلك مُنظّراً للحروب، ولم تكن أفكاره حول هذا الموضوع تقتصر على مجرد تقديم قدر كبير من الحكمة والمشورة بشأن هذه المسائل العملية من حيث التضاريس والمناخ، والنقل والإمداد، والاقتصاد، والمناورة، واستخدام القوة، بل تعدت ذلك المنحى إلى الكثير من الممارسات العملية التي تعتبر اليوم أمثال سائرة لجميع أنواع الصراعات، كما تميّز بكونه أول مدوّن في فن الحرب، بما فيه التوجيه بشأن الخداع عند التقدم، وعند الانسحاب، وعند الهجوم وعند الدفاع، والتخلص من القوات والانضباط، والاستخبارات.

كان الوضوح الكامن في تلك الأنواع من الأفكار هو في مرحلة ما قبل التنفيذ حيث يقوم "تزو" بوضع خطّة عمل في طليعة العمل. ولكن حتى يتحقق النصر النوعي، كان يجب أن ينظر إلى ملاحظاته حول طبيعة الحرب على القضايا الحقيقية، الإستراتيجية التي يجب أن ينظر إليها عند تحديد كيفية الانتصار.

كتب "تزو" كتاباً عن الأهمية المركزية للجوانب السياسية والنفسية للصراع التي تمنح الأولوية القصوى، وذلك قبل أكثر من 2000 سنة خلت.

أمّا "كلاوس ويتز" فقد حقّق اعترافاً واسع النطاق بوصفه المصدر الرئيسي على البعد الإنساني لهذه الإستراتيجية والحرب، لكن "صن تزو" كان قد كشف عن العديد من العناصر المركزية على حد سواء ولديه العديد من الملاحظات المقنعة التي لا يختلف عليها اثنان وهي: "أن تعرف العدو وأن تعرف نفسك" كما أنّه كان يعتبر إخضاع العدو دون قتال هو قمة مؤسسات المهارة. فالغايات الإستراتيجية التي تفكر في طرق مختلفة من بين الوسائل المتبعة يجب أن تحقق كثافة مميزة، ذلك لأنه في أي صراع، قد لا تكمن فيه الرغبة لإلقاء الضوء على مزيد من الحكمة.

لكن ذلك لا يقلل بحال من الأحوال من مساهمة "كلاوس" البروسية (1780-1831) والذي تمكن خلالها من تفصيل السلوك البشري داخل المنظمات، وتحت وطأة القتال، وبمنطق منقطع النظير جعله الأكثر نفوذاً إستراتيجياً لجميع الأوقات فقد كانت لديه عناصر لشروط التحليل الميداني التي تعكس خلفيته كمشارك في الظروف التي تحدد حروب نابليون، ولاسيما حماسه للهجوم، وقد نجم ذلك عن اعتقاده بأن الدفاع أقوى من الهجوم (مع ملاحظة أنّ ذلك الهجوم يجب أن يؤكد على هزيمة العدو)، وكذلك في الدعوة للمعركة الفاصلة والدمار الكبير أو أن تكون المعركة حاسمة. بيد أن التقدم التكنولوجي منذ ذلك الحين قد وضع كل هذه الملاحظات موضع شك في أحسن الأحوال.

ولكن تم الاحتفاظ بكثير من الأحكام التي حافظت على تألقها ومنها ثلاثة أحكام ساهمت في تحديد الإستراتيجية وأبرزت عبقرية "كلاوس ويتز" وتتميز في بادئ الأمر كما يلي:

- **أولاً:** يجب فهم أن الحرب في نهاية المطاف هو صراع إرادات وشجاعة الهدف ليس في تدمير البنية البدنية للعدو، ولكن في الشجاعة الأدبية.
- **ثانياً:** إضفاء الطابع الرسمي على مفهوم مركز الثقل باعتباره محور القوة الحاسمة التي ينبغي أن تطبق أولاً، في حالة من المراكز الخاصة بنا، ويكون هو الدافع بحزم.
- **ثالثاً:** الحذر في أنّ سير المعارك في الحرب قد تتأثر دائماً "بالضباب والاحتكاك" وهذا هو السمة الرئيسية لمعنى الارتباك إزاء ما يحدث، وتعتبر هذه الأخيرة من أنّ الأمور على غير ما يرام مهما أعددنا جيداً.

لكن كل الأفكار الحديثة في التخطيط والحكمة تعترف بأنّه قد لا تنجح خطة الحملة في أول مواجهة مع العدو.

ومن بين الأمور الأخرى، فإن مفهوم الاحتكاك يشمل نقاط الاحتكاك المقصود عمداً، وأن تتخذ الإجراءات التي يمكن أن تولد نتائج غير مقصودة أو غير مرغوب فيها، وهذا بدوره قد يؤدي إلى وضع أسوأ في المواجهة.

وتنطبق هذه الملاحظة على أي ميدان من ميادين العمل الإنساني، وليس على الحرب فقط، فعندما خضع الرئيس السوفيتي "ميخائيل غورباتشوف" وحاول إحياء الاتحاد السوفيتي في عام 1987 وإنقاذه من حالة الركود من خلال برنامج متواضع يطال النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية والمعروف "البيريسترويكا" أي "إعادة الهيكلة"، وكان ينوي بذلك خدمة الاتحاد السوفيتي من جانب صقل نظام الاشتراكية، لكنه وبدلاً من ذلك، فقد فتحت إصلاحاته فيضانات من الطاقات والأفكار الحبيسة والإحباط المكظوم، وكانت النتيجة أنه وفي غضون ست سنوات فقط كان البلد قد انهار برمته.

على الرغم من أنّ العواقب كانت غير مقصودة، بيدَ أنّها لم تأت أعمق بكثير من ذلك، وباختصار شديد، من الصعب أن نرى كيف أن "غورباتشوف" وزملاءَه قد توقفوا عن غير قصد ما قد بدؤوه!! وفي أقل إيمان الحالات فنحن بحاجة مستمرة لرصد الآثار التي تولد لدينا عواقب غير مقصودة، وإذا لزم الأمر، تعديل أعمالنا، وربما ما كنا لا نتوقع، ووفقاً لذلك، تعتبر الإستراتيجية دائماً مصدراً للمنافسة والتفاعلية.

يعتبر مركز الثقل والاحتكاك من الأمور الهامة بشكل هائل، بل ومساهمة في الفكر الإستراتيجي. ولكن "كلاوس" فيما يتعلق بفنون الحرب يذهب أبعد من ذلك بكثير. وقد سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى واحدة من أشهر البديهيات، وهي أنّ الحرب هي استمرار للسياسة، أو أنّها هي السياسة ولكن بوسائل أخرى.

تبرز طبيعة الحرب من خلال أمرين آخرين:

- **الأمر الأول:** هو عن الاعتقاد بأن النجاح في أي من ممارسات الحياة الخاصة يتطلب مؤهلات مهنية تستند على التفاهم والروح. ومجرد التقنية لن تكون كافية لتحقيق الكسب المطلوب، على الرغم من أنه من المرجح أن تكون النتيجة الثانوية "لكلاوس" تكمن في الحالة النفسية والفكرية للمطالب: فما هو مطلوب هو عبقرية "للحرب". ومن بين الأمور الأخرى، فإنه من خلال النجاح الإستراتيجي العسكري، فسوف تمتلك الشجاعة الجسدية والمعنوية، والاعتبار، والقرار، وتحت

ضغط العدو الفردي، سيتم عرض بعض تلك الصفات، ولكن لأن الحرب ليست فقط لا ترحم، ولكن أيضاً لأنّ الحكم على الدوام يكون خاضعاً لمقاطعة الفرص، وفي أي مهنة أخرى، فإنّ كل تلك العناصر تعتبر ضرورية جداً للعبقرية.

• **الأمر الثاني:** هو أنه، أولاً وقبل كل شيء، تُعتبر الحرب صراع إرادات وقتل العدو وتدمير الأسلحة والأجساد والمباني والبنى التحتية المدنية، وغير ذلك، وهي في حد ذاتها أعمال عنف لا معنى لها إذا لم تؤد في نهاية المطاف، إلى كسر إرادة العدو.

و بكلمات أخرى، يُعتبر العنف هو الوسيلة ويضطر العدو إلى تقديم التنازل ويكون بذلك قد تحقق الهدف المنشود في النصر الكامن في قهر إرادة العدو.

وهنا، قد تكون لدى "تزو" مؤهلات بارزة له حين أشار إلى أن الظروف في كثير من تهديد العنف قد يكون كافياً في حد ذاته للضغط على المعارض، وبالتالي لتغيير سلوكه. وفي حين أن الشرط صحيح، فإنّه لا يقلل من القوة البروسية للتأويل على الطبيعة الأساسية للصراع والإستراتيجية.

لا تعليق على صراع الإرادات وطبيعة الإستراتيجية ولن يكون ذلك كاملاً من دون الإشارة إلى أن الخبير المراقب للسلوك السياسي، والذي عاش بين القرنين الخامس والسادس عشر في مدينة "فلورنسا" الخبير الدبلوماسي والسياسي والمدير مكيافيللي"[24] الذي عمل كمستشار لآل "ميديسي وبورجيا" الأوروبية البابوية من أصل إسباني.

من بين أمور أخرى، يقف مكيافيللي مثالاً مترجماً لسياسة القوة فقد كان يعرض تقديم المشورة، وكان يتعين على الحكام والقادة في كتاب "الأمير الصغير" الذي شهد له النمطية، فالتاريخ لا يرحم الانتهازية، باعتبارها مكراً أخلاقياً وبراغماتياً، والذين يرون أنّ الغاية تبرر الوسيلة دائماً.

فالحكم غير عادل، حسب "مكيافيللي" الذي كان يرى غير ما يراه العالم، وقد

24- نيكولو دي برناردو دي مكيافيلّي ولد وتوفي في فلورنسا، كان مفكراً وفيلسوفاً سياسياً إيطالياً إبان عصر النهضة. أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي.

وجّه استنتاجاته وفقاً لذلك. وهذا كان أكثر اهتماماً حقيقياً من السياسة، ويقول: الخلاص !! ليس بالضرورة خلقه.

إستراتيجية أنابيب المرجل:

وهي إستراتيجية ذات شخصية لا أخلاقية؛ فهي لا تعكس سوى من له مصلحة في الانتصار ولماذا بعض الناس يفقدونه، وغير ذلك.

يرى الكثير ممن كتبوا - و"مكيافيللي" من بينهم - أنّ الأمور قد لا تكون دائماً بالطريقة التي نود لها أن تكون، بل وقد تكون مدمرة في بعض الأحيان. وقال أن يكون الأمير (الذي يكون أيضاً هو الرئيس العام وكابتن الفريق) لكنه يجب أن يكون واقعياً، وقد أدت حقيقة من حقائق الحياة إلى أن دفعت "مكيافيللي" الشهير لكتابة ملاحظاته:

"ومن أكثر أمناً ويخشى أن يكون، بدلاً من أن أحب.. "الأمير الذي يريد أن يفوز" ولذلك يجب أن تعتمد على ما لا تستطيع السيطرة من خلاله على الآخرين... إلا أنه في حاجة إلى السعي لتجنب المكروه والبأس من استخدام الهيمنة، إذا لزم الأمر عن طريق الخداع، فهو أمر أساسي لتحقيق النجاح، سيكون جيداً "للأمير" على ما يبدو، لكنه في الواقع، كان يحمل خصالاً طيبة ومخلصة، إنسانية وصريحة، ودينية، لكنه كان يجب أن يحافظ على تصرفه مما يجعله يغيّر من سلوكه المحتمل في حال دعت الحاجة.

وهنا يعكس "تزو" الاعتقاد بأن "جميع الحروب تقوم على الخداع"؛ لكن "مكيافيللي" يصر على مرونة اعتبار أهمية خاصة للجنرالات والإستراتيجيين، في حين أنّه قد يكون من "البغيض" ممارسة الاحتيال في الحياة بصفة عامة في حين أنّ إجراءات الحرب يجب أن تكون محمودة ومجيدة.

ولكن بعد عدة مئات من السنين التالية، ورغم التوصيات التي ترجمت بعدة صيغ من الناحية العملية، لم يكن بالإمكان التنبؤ بما قد يقوم به القائد العام "جاكسون" والذي اعتبر بأنّ الفلسفة الإستراتيجية هي فلسفة محيرة دائماً وتضلل

مفاجأة العدو.

وفقط في حال كان أحد قد غاب عن هذه النقطة، فقد ترجم "مكيافيللي" سيكولوجيا "القوة هي الحق" وذلك عبر تذكير القارئ بأن "جميع ما استخدم من قوى مسلحة وغير مسلحة التي احتلت قد فشلت"، وإن كان من المقرّر أنّه قد رددت بعد أربعمئة عام في وقت لاحق من قبل "ماو تسي تونغ" الذي أكد أنّ جميع الشهرة والسلطة السياسية تنبع من فوهة البندقية.

وهنا، لا يتعين علينا أن نتفق مع "مكيافيللي" أو نتفق مع ملاحظاته على القيادة، ولكن أي إستراتيجي يهتم في فهم كيفية الانتصار لن يتجاهل سياسة القوة، والمنافسة، والطبيعة البشرية.

الإستراتيجية المتكاملة:

في بداية القرن الحادي والعشرين، كان الشغل الشاغل في الإستراتيجيات العسكرية هو الحديث عن الدفاع عن استخدام - بشكل ملائم - تطبيق القوة المشتركة، وذلك مقابل خدمة القوات الجوية والجيش والبحرية، أو قوة محتملة من مشاة البحرية.

إنّ فكرة استخدام عناصر البيئة المختلفة للأوضاع يكمل بعضها بعضاً بحيث يكاد يكون كل عنصر من تلك العناصر وكأنه عنصراً جديداً، وذلك بعد أن يتم تحويل تلك العناصر - على الأقل - إلى وضع ملائم لأرض العمليات بمختلف صنوفها، فمنذ المرة الأولى لاستخدامها، كانت القوات البرية قد بدأت باستخدام السفن لنقل الجنود وبعد ذلك، أصبح هناك ما يدعى بجنود البحرية المحمولة.

ولكن، وبينما كانت قوات مشاة البحرية عنصراً مهماً من عناصر القوة البحرية لآلاف السنين الماضية لم يكن حتى ظهور القوة الجوية أثناء الحرب العالمية الأولى التي بدأت الحرب المشتركة لتحقيق التفوق الذي تحظى به الآن. وهي اليوم تعتبر احتمالاً متقدماً من قوات الدفاع في أي خطة من شأنها السيطرة على الأرض أو البحر، كما أنّ قوات البحرية المتكاملة بقوات مشاتها يمكنها أن تقوم بحملة ما من دون الاعتماد على القوة الجوية.

ليس مهماً التغلب على الحملة الجوية - كما حدث مع الحلفاء أثناء تنفيذ الهجوم الجوّي ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، أو ما حدث في العملية المنفَّذة ضد القوات الحليفة في جمهورية يوغوسلافيا السابقة في عام 1999 - في حين يمكن أن يتم تنفيذ تلك العمليات الجوية دون مساعدة على مستوى معين من الجنود والبحارة. وفي الواقع، فإن التجربة العملية على أرض العراق في عام 2003 قد أثبتت نجاحها الكبير ولفتت النظر إلى أنه يمكن للضربات الجوية أن تحقق نتائج مبهرة بدلاً من مجرد خوض حرب مشتركة، والذي قامت به لاحقاً القوى الجوية والبرية والبحرية كعناصر مكملة لبعضها البعض، ولكن القوة البحرية لا تزال تميل إلى محاربة منفصلة، وإن كانت منسقة مع الحملات المتقدمة لقوات الدفاع الأخرى حيث ستزداد حملات المكافحة المتكاملة، وحيث يمكن لعناصر البيئة أن تلعب دوراً فاعلاً بين التشكيلات.

النقطة الهامة هنا هي أنّ الارتفاع المستمر المشترك والمتكامل للقوة العسكرية كوسيلة إنّما تؤثر على الطريقة التي يتم فيها تنفيذ الإستراتيجية ككل وذلك من أجل تمكين المنظومات المعروفة للجيوش والقوات الجوية والبحرية من العمل معاً بصورة منسقة ومتزايدة، وحيث يمكن استخدام التكنولوجيا بالمثل لأجل استخلاص وسائل التقريب بينها، لاحظ على سبيل المثال، (التركيز في الوقت الحاضر على استخدام طائرات الهليكوبتر على سطح قوات المناورة، وقوة النيران، ومجموعة متنوعة من الصواريخ لإطلاق النار والدعم، والطائرات بدون طيار للحصول على المعلومات)، في حين أنّه من المحتمل قيام المدارس التقليدية والتفكير الإستراتيجي بالمشاركة في أكبر قدر من ممكن في ساحات العمليات الأرضية المشتركة. ولاسيما تلك العمليات ذات الطابع "الجيو إستراتيجي" الخطيرة، ومن المرجح أنّ القوى الثلاث - الجوية والبرية والبحرية - في هذا الصدد ترنو إلى السعي السريع الإستراتيجي وذلك اعتباراً من أول اختيار للهدف، ولكن هذا كان بمثابة نهاية واقعية قد تتحقق ولكن ليس في بنية القوة الجوية، والذي كان غير مُجدٍ أمام تكنولوجيا الجيوش والقوات البحرية المتتالية، والتي ساعدت على تفسير بعض

المتابعات وبالتالي تضييق الآفاق الإستراتيجية لكل من الخبراء الإستراتيجيين على سبيل المثال "كماهان وشيفلن وجمني" ولكن على النقيض من ذلك، فإنّ أفكاراً أخرى لأعظم المفكرين على الساحة الإستراتيجية وخبراء الحرب من أمثال "صن تزو" و"كلاوس" يمكن أن تزدهر وتتطور في البيئة الإستراتيجية.

بغض النظر عن الظروف المحيطة، فإنّه من الصحيح دائماً أنّ للإستراتيجية أربعة عوامل لابدّ من أن تُؤخذ في الاعتبار عند تحليل الوضع، وقبل اتخاذ القرار على مسار العمل:

- **العامل الأول:** هو أنّ الإستراتيجية تعنى بكيفية الانتصار.
- **العامل الثاني:** هو أنّ الانتصار يعتبر مفهوماً نسبياً.
- **العامل الثالث:** هو أنّ هذه الإستراتيجية لا ينبغي أن تكون مقيدة بالحدود البيئية.
- **العامل الرابع:** هو أنّه إذا كان الهدف يحمل المزايا القانونية والأخلاقية والواقعية، وإذا كانت الوسائل تتناسب مع الغايات، فإنّه من المرجّح أنّ الإستراتيجية ستصون مبادئها وتراعي ذاتها.